محاولة مستمرة

□□ عملية تهويد الجيل العربي المسلم ، وتغيير معالم المؤسسات الإسلامية المقدسة ، وتغيير المسميات ، وإعادة التشكيل الاجتماعي والتركيب السكاني ، في محاولة لطمس شخصية أصحاب الأرض المحتلة ، وتحويل ولائهم ، وتغيير انتمائهم ، تسير بخطوات حثيثة ، وعلى أكثر من مستوى ؛ وتتركز جهود دولة العدو على مدينة القدس ، فمنذ أن احتلتها عام ١٩٦٧م والاعتداءات الظاهرة على المسجد الأقصىٰ تتم بأشكال متعددة ، إضافة إلى الحفريات التي تجري تحته تهدد بسقوطه لإقامة الهيكل ؛ وفي الماضي القريب كان يقوم بمحاولات الحرق والاحتلال والتدنيس والإساءة لمشاعر المسلمين جماعاتٌ أو أفراد بعيدون ـ بحسب الظاهر ـ عن المؤسسات الرسمية الحاكمة ... □□

لكن التطور الجديد ، أو المرحلة الجديدة بعد تلك الاختبارات السابقة جميعها هو أن عمليات الاقتحام والتحدي بدأت تقوم بها السلطات الحاكمة نفسها ، فلقد حملت الأنباء مؤخرًا أن عديدًا من النواب الإسرائيليين التابعين للجنة الشؤون الداخلية ، ومعظمهم أعضاء في حزب « ها تحيا » الإرهابي ، ومعهم عدد من الحاخامات اقتحموا الحرم القدسي مصطحبين معهم نسخًا من التوراة لقراءة فقرات منها ، وقام الحاخام « إليعازر فالدمان » بالصلاة داخل الحرم بحراسة يهودية ، كما قام « شلومو هيليل » رئيس الكنيست الإسرائيلي بزيارة الحرم القدسي ، وصرَّح « أهارون نحميا » عضو الكنيست أن الصلاة داخل الحرم ينبغي أن تصبح شيئًا مألوفًا بالنسبة لليهود ، كما صرَّح « أرييل شارون » بأن امتلاك اليهود للأقصىٰ مسألة وقت ، أما « شمعون بيريز » زعيم حزب العمل ورئيس الوزراء فقال : ما اتخذته الحكومات السابقة التي تعاقبت على السلطة منذ حرب ١٩٦٧م من إجراءات بشأن الأماكن المقدسة لا يزال ساري المفعول ، وإنَّ سيادة إسرائيل !! على أجزاء القدس كلّها ، ومن بينها الحرم ، قائمة لا رجعة عنها . وأما النائبة « شولاميت ألوني » فلم تر من الحادثة إلَّا ما يمكن أن يترتب عليها من نتائج خطيرة إذا استشعر العرب التحدّي ، فقالت : نحن شهود لعملية خطيرة يُخشىٰ أن تحوِّل الصراع بيننا وبين العرب إلى جهاد !! وهو التخوف نفسه الذي أبداه اليسار الإسرائيلي ـ الذي راهن عليه ولا يزال كثيرون في العالم العربي ـ كما نقلت صحيفة « الفيغارو » من أنّ هذه الزيارة للبرلمانيين قد تحمل الخطر الكبير بالنسبة لإسرائيل إذا أثارت ردود فعل لا يمكن التحكم فيها في العالم الإسلامي خاصة في الوقت الذي يعكف فيه المتطرفون الدينيون على تسمية من يقتلون اليهود شهداء ـ إشارة إلى حادثة الجندي المصري سليمان خاطر ـ وهذا الاتجاه ليس جديدًا على اليسار بشكل عام ، واليسار الإسرائيلي بشكل خاص ، فلطالما تخوّف يهود من أن تؤدي تصرفاتهم إلى إيقاظ الروح الجهادية في عالم المسلمين ؛ ولا نزال نذكر كيف أن الصحافة ومؤسسات الإعلام العالمية في أعقاب نكبة عام ١٩٦٧م لم تهتم حتى بالمواقف الإنسانية تجاه الاحتلال ومآسي التشريد والإرهاب ، وإنما كان الذي يهمها ، وقد أبدت تخوّفها منه : هو التحذير من عودة فكرة الجهاد المقدس إلى الجماهير المسلمة بعد الهزيمة ... وكيف كرَّست الدوائر العالمية جهودها لمحاربة التوجهات الإسلامية كلها ، ومحاولة اقتلاعها من جذورها بالأيدي نفسها التي ساهمت في صنع الهزيمة لتبلغ النكبة مداها .

ولا شكّ أن صمودَ الجماهير المسلمة اليوم أمام أسوار الأقصىٰ ، واستماتتها في الدفاع عن مقدساتها على الرغم من وسائلها الدفاعية البسيطة من الحجارة والعصي والأيدي المجردة ، وطبيعة الشعارات التي ترفعها والنداءات التي ترسلها لتشحذ صمودها وتدفعها إلى الاستشهاد في سبيل عقيدتها مؤشرٌ واضح ومتجدد على النتائج التي يمكن أن تتحقق فيما لو عادت روح الجهاد الإسلامي إلى الجماهير المسلمة ، وخُلِّيَ بينها وبين عدوها .

إنَّ يهود اليوم أصبحوا على دراية كافية ورصد كامل لردود الفعل ، وقدرة على التحكم بالنتائج التي يمكن أن تحدث في العالم العربي ، وهم أدرىٰ أيضًا بالوسائل المعتمدة في إلجام

لتعطيل روح الجهاد

ومحاصرة التوجهات الإسلامية الجهادية ... وقد يكون من الأمانة الاعتراف بالتردد الكثير قبل اختيار الكتابة في موضوع الاعتداءات الإسرائيلية المستمرة ، والتحدي الكبير الذي يواجه العرب المسلمين في الأرض المحتلة ، ابتداءً من عمليات المسخ والتشويه والتضليل للعقل العربي المسلم في المدارس ومؤسسات الثقافة ، والقراءة اليهودية التوراتية للتاريخ والحضارة في مناهج التعليم والكتب الدراسية ، وهو الأخطر ، وانتهاءً بما يتعرض له المسجد الأقصى من المآسي التي لا تتوقف . ولم يكن الباعث على هذا التردد هو عدم الإيمان بأهمية الموضوع ، ذلك أن تهويد مناهج التعليم ، وقطع الجيل القادم عن تاريخه وعقيدته ، وتغيير انتمائه وولائه يكاد يكون من أخطر القضايا - إن لم يكن أخطرها على الإطلاق - حيث يُدَرَّسُ الطالب العربي المسلم في التوراة والتاريخ والأساطير اليهودية خمسة أضعاف دراسته عن الدين الإسلامي ، إضافة إلى أن هذه الدراسة عن الإسلام وتاريخه التي تسير في طريق الاضمحلال إنما تُقدم مشوّهة بعد أن عبثت بها أيدي يهود . كما أن طمس المعالم وتهديم المؤسسات الإسلامية ، وتغيير الأسماء والمسميات في محاولة لإلغاء الهوية العربية والإسلامية وإعادة تشكيلها من جديد بما يتوافق ومصلحة يهود يعتبر من أهم القضايا التي لا يملك الإنسان المسلم فيها اختيارًا ، لأنها مسؤولية دين . كما أن الباعث على التردد لم يكن نابعًا من عدم الإيمان بجدوى الكلمة والتقليل من أهميتها وأثرها وفاعليتها ، فالكلمة الطيبة كالبذرة سوف تنبت وتمتد عندما تتوفر لها الشروط الملائمة ، فهي كالشجرة الطيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء ممتد على الزمن ؛ ومن كان يدري أن الكلمة التي قالها سيدنا يوسف عليه الصلاة والسلام في السجن كانت تحمل في طيّاتها كل هذه الآثار التغييرية التي ترتبت عليها ؟!

ولقد تشكّلت الأمة الإسلامية ، وقامت الحضارة الإسلامية من خلال كلمة ، وتكوّنت من خلال كتاب ؛ لكن مبعث التردد هو العزوف عن الانضمام إلى جوقة الندّابين والبكّائين ، وأصحاب صناعة الحماس الكلامي ، أو الذين يوبخون أنفسهم بأقوالهم التي تخالف أفعالهم ؛ فلقد كثرت الكتابات وكثرت ، ومضى عليها قريب من عشرين سنة ، والأمور تزداد تدهورًا ، ونخشى أن يصدق فينا قوله تعالى : ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ (الجمعة : ٥) .

والمشكلة في عالمنا العربي ليست في عدم معرفة الحق ، وقد لا تنقصنا المعرفة ، وإنما مشكلتنا تكمن في عدم الالتزام بأخلاق هذه المعرفة والالتزام بنتائجها ، والتضليل الثقافي الذي يُمارس علينا صباح مساء ، وكأننا مصرّون على الاحتفاظ بالهزيمة وتهيئة الظروف للإبقاء عليها ، وإسرائيل تعمل على إلغاء الإحساس بها من ضمير جيل الأرض المحتلة ، كما تعمل في الوقت نفسه على تطبيع الهزيمة والاحتلال في العالم العربي ، والمآسي التي نعيشها ، ويتلظى بنارها يوميًا أبناء الأرض المحتلة أصبحت بالنسبة لكثير منّا مادة للإعلام ، وموسمًا للاحتفالات وصناعة المؤتمرات والتنقل بالطائرات ونزول الفنادق ، وفرصة للابتزاز وكسب المال وبناء الزعامات ؛ ولو أنّ ما أنفق على المؤتمرات والأسفار والاحتفالات احتجز بعضه للإعداد للجهاد ، أو وضع في سبيل تربية الجيل على الإحساس بقضيته والإعداد لها وتبصيره بأبعادها حقيقةً لتغير الحال ، لكن قد تكون مشكلة الأمة وجماهيرها المسلمة في بعض من يتقدمون لمعالجة القضية ، ذلك أننا أصبحنا اليوم نسمع خطبًا ، ونقرأ كلامًا ، ونطّلع على مشاريع للحلول تجاوزت كل عقل ودين ووطنية ومنطق ، وهي تسير بنا من سيّئ إلى أسوأ ، وهكذا فالعدّ التنازلي مستمر والتراجع متسارع ، وتسويغ الهزيمة جارٍ على قدم وساق ، وما كان قبل سنوات يعتبر من الخيانة العظمى أصبح طرحه اليوم ومناقشته أمرًا طبيعيًا !!

إنَّه الزمن الرديء الذي أخبر عنه الرسول ﷺ ، حيث أصبح المعروف منكرًا ، والمنكر معروفًا ؛ والمطلوب منّا كجماهير أن نروَّض على ذلك ، حيث لا يُكتفى بحالة العجز والمحاصرة التي فُرضت علينا ، بل لا بد لنا أن نغير عقولنا ، ونبدل قناعاتنا ، فنكتب للمنكر ونصفق له ، ونروّج له على أنه معروف ؛ إنه

محاولة مستمرة

الإصرار على تسويغ الواقع وفلسفة الهزيمة ، وقلب القيم ، والقراءة الخاطئة التي يُراد أن نعلّمها للأجيال القادمة لتتوارث العجز ، وتُدمِن الذل والهزيمة ، وتنمو فيها حواس الهوان والانكسار ، وتؤهل لتسويغ الواقع وقبول التضليل السياسي ، وهنـــا مكمن الخطر .

والناظر في الواقع العربي الإسلامي بعد هذه الحال التي انتهى إليها يصعب عليه أن يقبل أو يصدق أية جدّية في مواجهة القضية والإعداد لها ، بل على العكس من ذلك ، فالواقع يدل ، وكأننا نعد ونحضّر لتصفيتها شيئًا فشيئًا ، وتحضّر الجماهير المسلمة لابتلاع الطُّعم على مراحل ، واللغز الذي لا يزال محيّرًا على مستوى العالم العربي ، وإن لم يكن كذلك على مستوى العالم : أن تُطرح اليهودية وتقبل ويحضر للتفاوض معها كعقيدة معتدية مغتصبة محتلّة ، ويرفض ويحارب الإسلام ، ويُتهم شبابه بالتطرف والتعصب وهو في موقع الدفاع ؛ وقد يكون في ذلك مندوحة لغير العرب والمسلمين ، أما أن تنتقل العدوىٰ للمسلمين ، فهذا هو الأمر العجيب . ويغيب عن كثير منّا أن المعاقل الحقيقية التي احتفظت بالقضيـة حيّة في نفـوس المسلمين ، واختصّت بحماية الجيل في الأرض المحتلة وفي غيرها من الذوبان هي المساجد وروّادها ، وفي مقدمتها : المسجد الأقصىٰ الذي يتعرض هذه الأيام للتحدي والاعتداء ، وأنّ المواجهات الحقيقية كانت ولا تزال مع المسجد ، ذلك أنّ المقاومة الحقيقية إنما تُربّىٰ في المساجد ، وتنطلق منها ، لذلك كانت المساجد في العالم الإسلامي هي خطوط الدفاع والمواجهة الأولى ، وكانت على تاريخها الطويل موئلًا للعلم ومعقلًا للجهاد وموردًا للثورات ضـد المحتل والمستعمر ؛ وأن أي إذلال للمساجد ، أو محاولة لإلغاء رسالتها ، أو طمسٍ لدورها ، أو مطاردة لروّادها كان دائمًا مؤشرًا واضحًا على الخيانة والتبعية الفكرية عبر التاريخ ؛ والذين يمارسون ذلك هم رصيد العدو المتقدم في العالم الإسلامي علموا ذلك أم جهلوا !!

وقد تكون المأساة الحقيقية حيث تتمركز اليوم وتظهر حول المسجد الأقصىٰ ، إنما هي مأساة المسجد في معظم أنحاء العالم الإسلامي ، حتى ليمكننا القول : إنّ مأساة الأقصىٰ هي ثمرة لمأساة المسجد في العالم الإسلامي بشكل عام وغياب دوره عن حياة المسلمين ، ذلك أن رسالة المسجد ، ودور المسجد في معظم أنحاء العالم الإسلامي إمّا معطّل أو محاصر ، والخطورة كل الخطورة أن تنقلب المساجد في كثير من بلاد المسلمين إلى مؤسسات إعلام رسمية تردّد ما يكتب لها ، وتدخل في جوقة المدّاحين فلا يصبح لوجودها معنىً عند جماهير المسلمين ، وما أشبه الليلة بالبارحة ، فقد يكون من المفيد هنا أن نستشهد بموقف من مواقف نور الدين محمود الشهيد ـ رحمه الله ـ الكثيرة بين يدي تحرير القدس من الغزو الصليبي ، علّنا نفيد من أمسنا ليومنا وغدنا ، وذلك في محاولته الرائدة يومها لتوفير حرية النقد البنّاء وحرية الرأي وهدم جدار النفاق الذي يغيب البصارة الحقيقية للأمور ؛ حيث منع كل ما من شانه بثّ روح التزلّف والتملق والنفاق للمسؤولين ، من ذلك مثلًا : أنه منع خطباء المساجد الذين يبالغون في الدعاء له ، ويصفونه بالعبارات الرنّانة التي تعوّدوا أن يتقربوا بها إلى قلوب السلاطين !! فطلب إلى خالد بن محمد بن نصر القيسراني أن يوقف ذلك ، وأن يكتب له صيغة دعاء بسيط ، تطابق الواقع بأحواله وأفعاله . فكتب له : اللّهم أصلح عبدك الفقير إلى رحمتك ، الخاضع لهيبتك ، المعتصم بقوتك ، المجاهد في سبيلك ، المرابط لأعداء دينك أبا القاسم محمود بن زنكي أمير المؤمنين . وقرأ نور الدين ـ رحمه الله ـ نسخة الدعاء ، وعلّق عليها بالعبارة التالية : مقصودي ألّا يُكذب على المنبر ، أنا بخلاف كلّ ما يقال ، أأفرح بما لا أعمل ؟ قلّة عقل عظيم ، الذي كتب هو جيّد ، اكتب به نسخًا حتى نسيره إلى جميع البلاد ... (مرآة الزمان : ٨/ ٣٢٣ ، سبط ابن الجوزي) .

والخطير في الأمر اليوم هو محاولة القضاء على المسجد وإجهاض دوره وتهديمه من الداخل ، فالذين يحاربون المسجد ، ويعطلون رسالته ، ويحنطون دوره ليصبح مبنىً بلا معنى لا يمكن أن يدافعوا عن المسجد الأقصىٰ ؛ والذين يزعجهم الأذان ، ويحاولون إسكات صوت المؤذن لأنهم يرون في ذلك إقلاق راحتهم ، وتعطيل نومهم لا يمكن أن يكونوا محلًّا للدفاع عن الأقصىٰ ؛ والذين يهدمون معاني الجهاد في الأمة لا يمكن أن

لتعطيل روح الجهاد

تصدق دعواهم بالعمل على تحرير المسجد الأقصى ؛ والذين يدعون إلى إقليمية وعصبية طائفية يستبدلونها بالإسلام لا يُطمأن إلى صدقهم وحسن نواياهم ، لأنهم جنود في جيش العدو ، ولا يمكن أن يكونوا رجال التحرير ؛ والذين يدعون إلى رفع سلاح الإسلام من المعركة ، ويخدعون بطروحات العلمانية على حساب الإسلام ليسوا مؤهلين لقيادة الأمّة ؛ والذين يطاردون المصلحين ، ويحاصرون العقيدة الإسلامية ، ويحولون دون عملية البلاغ المبين لا يمكن أن يُقبلوا حماة للأوطان ...

إنَّ إسرائيل تخاف من المسجد لأنها تعرف ماذا يعني ، وتخاف من عودة روح الجهاد المقدس إلى الأمة ، وهي مع الأسف أقدر على الاعتبار بالدرس التاريخي ، لذلك تعمل على استئصال روح الجهاد ، وتهديم المساجد في الأرض المحتلة ، وتمكِّن لأصدقائها في العالم ليقوموا بالدور نفسه ، وتذكر العرب دائمًا بأيَّام الجاهلية لتقوم حرب القبائل ويستمر الثأر !!

إنَّ المآسي والأحزان والمعاناة التي صنعت في بعض أنحاء عالم العرب والمسلمين أنهكتهم وجعلتهم على حال ليست أحسن كثيرًا من إخوانهم في الأرض المحتلّة ، وقد لا نكون مبالغين إذا قلنا بأنَّ ضحايا معركة واحدة من معارك حرب الخيام والقبائل التي تستنزف العالم العربي وتمكِّن ليهود بشكل مباشر أو غير مباشر تكفي لتغيير صورة الواقع الذي نعاني منه .

لقد احترقت الشعارات كلّها ، وأفلست القيم التي استبدلت بالإسلام ، وهُزمت وعجزت عن أن تقدم شيئًا للقضية ؛ كما أن المواجهة المادية للجيل المسلم ومؤسساته باءت بالفشل ، وبقي الإسلام ملاذ الأمة وحصنها الأخير ؛ والخطورة اليوم أن يُوظّف الإسلام من خلال بعض من يدَّعون الانتساب إليه ليكون جزءًا من صورة الحلول العاجزة ؛ وتُطرح شعارات ، وتُقام مؤسسات إسلامية ، وتُعقد مؤتمرات إسلامية بعيدة عن أي مضمون صحيح ، أو جدّية صحيحة ، أو التزام صحيح بالأخلاق الإسلامية لإجهاضها وإفسادها ومحاربة الإسلام الصحيح ... وهذا لا يقل خطورة في نظرنا عن محاربة الإسلام بشكل مباشر ، إن لم يكن الأخطر حيث يُغيِّب التحدّي الذي يوقظ شعور الأمّة ويستنفر طاقاتها ويدفعها إلى إعادة تنظيم صفها وحشد إمكاناتها ومواجهة عدوها ، ويُفقد الأمة أي أمل في نهوض أو أي ثقة بقيمة أو مبدأ .

إنَّ مواجهة يهود قد لا تتحقق في هذا الجيل لسبب أو لآخر ، فلا أقل من أن نكون أمناء على القضية عندما نورّثها إلى الجيل القادم ، فلا نورّثهم فلسفة الهزيمة ومسوغات الواقع ، وصورة البطولات التي تصنع من فراغ ، ولا نربِّي فيهم حواس الذل والهوان والتضليل الثقافي ... ولا بأس أن يتم التحرير في جيل قادم أو في أجيال قادمة تستشعر التحدي ، وتصدق المواجهة ، فلقد احتل الصليبيون القدس ما يقارب مائتي عام ، ولكن المشكلة اليوم : تطبيع الهزيمة في نفوس الأبناء والأحفاد ، والاستكبار وعدم الاعتراف بها وإعداد العدّة الصحيحة لها ومحاربة الانتماء للإسلام ، وعدم تحدد الولاء بشكل حاسم !!

كما أنه لا بد أن تسير تربية الجيل في طريق تأكيد أن جهة الولاء الوحيدة بالنسبة للمسلم هي لله تعالى ورسوله ﷺ ﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ ﴾ (المائدة : ٥٥) وتعميق هذه القناعة ، وبيان أبعادها ، وكيف أن العدول عنها نوع من الارتداد والعياذ بالله ، وقد لا يكون من الغريب أن معظم آيات الولاء في القرآن الكريم إنَّما نزلت عندما انحاز المنافقون في عصر النبوّة لموالاة يهود ، والتي اعتبرها القرآن الكريم ردّةً ، فقال بعد ذكر جهة الولاء : ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ (المائدة : ٥٤) .

وبعـــد : فإنَّ الواقع الذي عليه العالم العربي إذا استمر على ما هو عليه لا يرجى منه خير إلَّا ليهود ، وإذا لم يتدارك أمره ويعدل مساره ، ويغيِّر ما في نفسه ، ويتبصر الأحداث بالطريق الصحيحة ، وتقترب الخبرة من موقع صناعة القرار فسوف تتوالى الكوارث والنكبات ، يقول تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴾ (الأعراف : ٢٠١) ولله الأمر من قبل ومن بعد .